

العشق النجمي

للدكتور محمد عوض محمد

لئن كنت أبها القارىء ممن وقاهم الله غائلة العشق، ولم تنفجر في صدورهم قبايل الغرام، ولم تضع المقادير قلوبهم بين سندان الشقاء ومطرقة البلاء، إذن فاحمد الله، واشكر جرك الباسم! لكن إذا كنت خلياً فاذكر الشجي، ولا تمنعك السعادة من أن ترثي للشقاء، فان لصري الغرام عليك حقاً: أن تذرف من أجلمهم لتراً أو لترين من الدمع الساخن، ثم تسقي به ثراهم وتروى به الطلحة الحزينة التي تظلل جدتهم.

وإني محدثك اليوم عن ضرب جديد من العشق، أو على الأقل ضرب كنت أحسبه جديداً.. إلى أن ألفيته قديماً، شأن كل هذه الأشياء التي يطلع علينا بها المجددون..

يبدو أن العشق الجديد الذي نحن بصده، إن لم يكن جديداً، فقد استحدثنا له اسماً جديداً، ودعوانه «العشق النجمي».. وهو كما ترى اسم طريف، ليس في الكتاب من سبقنا إليه... ولا خير في كاتب لا ينهض للجليل من الأمور فيبتدع لها الجديد من الاسماء.

وأول من أصيب بالعشق النجمي فيما نعلم، أو على الأقل أول من سجلت أصابته رسمياً، هو العباس بن الأحنف إذ يقول عن حبيبته:

هي الشمس مسكنها في السماء فعز الفؤاد عزاء جيلة

فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع اليك النزول

هكذا كان ذلك العاشق المسكين: يطلب ما ليس إليه سبيل،

ويظلم والشراب عزيز، ويشتهي وقصارى جهده أن يشتهي.

ولعمرك ما دام مناط حبه الشمس، فليس حظه منها سوى التطلع

والتحديق، والزفير والشهيق.. هل كان يعلم عفا الله عنه!

أن بينه وبين الشمس ٩٢.٠٠٠ ر ٩٢.٠٠٠ ميلاً في الصيف

و ٩٣.٠٠٠ ر ٩٣.٠٠٠ في الشتاء؟ وهي في كلا الحالين بعيدة المنال،

ليس إليها في شتاء ولا صيف وصول.

ومن العبث أن ننصح أمثاله من العشاق أو نعتهم، أو نطلب إليهم أن يصرفوا هواهم إلى الممكن المتيسر، والقريب الداني. وأن يراعوا صحتهم، فإن في طلب المحال سقماً وسهداً وإن التحديق في الشمس يضنى القلب كما يضنى البصر.. ولكن هيئات...

إن المحب عن العذال دائماً في صمم.

وأحسب القارىء قد أخذ الآن يفهم ما أعنيه بالعشق النجمي. وأظنه يتوهم أن العشق النجمي هو عشق الشيء البعيد المنال.. لكن هذا ليس الذي أرمى إليه. إن العشق النجمي هو عشق النجوم نفسها.. أجل النجوم التي في السماء على طريقة العباس بن الأحنف المذكور. وروبداً يظهر لك ما أضمره. شيئاً فشيئاً.

هنالك أمراض تصيب الناس من آن لأن. لكنها تصيبهم فرادى. أى تصيب هذا مرة، وذاك مرة أخرى. ثم يأتي بعد ذلك زمان تصبح فيه تلك الأمراض وباءً يمتاح العالم كله إقليماً بعد إقليم، وشعباً بعد شعب.

وهكذا «العشق النجمي» كان فيما مضى يصيب الناس فرادى، فأمسى الآن وباءً شائعاً فاشياً، قد ملأ السهل والجبل وانتشر في المشرق والمغرب. وسبب ذلك أن قد ظهرت في العالم سماء جديدة: سماء غير السماء التي ألفنا.. وهذه السماء الجديدة تدعى «السناء» وقد امتلأت أرجاؤها بالنجوم.

والاشق الذي تتأجج ناره في قلوب المغرمين ببعض هذه النجوم لا يختلف، في كثير ولا قليل، عن ذلك الهوى المبرح الذي وصفه لنا العباس بن الأحنف. وقد يظن بعض البسطاء أن نجوم السناء أدنى إلينا وأقرب منالاً، إذ تراها أمامنا ونشاهدها بأعيننا. وهذا لعمرك خطأ محض! فانها قريبة على بعد، بعيدة على قرب.

والشرق نحو الغرب أقرب شقة

من بعد تلك الخمسة الأمتار...

والآن قد أدركت أيها القارئ ما «العشق النجمي» وأنه هو تلك اللوعة التي تحرق قلوب الناس في مشارق الأرض ومغاربها من أجل بعض النجوم ، التي تدور في أفلاك تدعى «الأفلام» في سماء يسمونها «الشاشة» البيضاء فالعشق النجمي إذن منسوب إلى نجوم السماء ، وبالله لا تقل كواكب السماء ! لأن الكواكب في علم الهيئة قريبة المنال دانية المزار ومن علمائنا اليوم من يحلم بالوصول إلى بعض الكواكب كالمرخ — أما النجوم فبعيدة بعد الشيء المستحيل وكذلك العشق النجمي فإن مرامه بعيد ، وأربه محال .

وأكبر ما يمتاز به هذا العشق أنه عذري . . فانك قد تولع بنجمة فتأنة من نجوم هليوود ، فيمتليء بحبها قلبك ، وتلك عليك مشاعرك ، فلا ترى في الأرض الفسيحة غير وجهها ، ولا تسمع غير صوتها . هي حاكمك إذا هجعت ، ونجواك إذا صحت إن أبصرتها في قصة حزيننة استولى عليك الحزن والألم . وإن أصابها برد أو زكام أصابك مثلها سعال وزكام . وإن رأيته يا للهول ! — صريمة قتيلة ، قطع الحزن نياط قلبك ، وأظلم العالم في وجهك ، فلا تزال كثيباً أسيفاً ، جاحظ العين متقلص الشفتين ، حتى تراها في فلم آخر فرحة ضاحكة . فيسرى عنك وتبرق أسارير محياك . وتضحك حتى تبدو نواجذك . .

ومن الغريب أنك لا تأخذك الغيرة حين ترى عشاقها الكشيين ، ولا تستنكر منها أن تبدل في كل (فلم) زوجاً مكان زوج . أو صاحباً مكان آخر . لا يهمك من هذا كله شيء . لأنك لا تفكر في غير سماتها ، فكل ما ترضاه ترضاه . ويحلو في عينك ما يحلو في عينها . بل لقد ألهاك التفكير فيها عن التفكير في شيء آخر . .

ثم أنت بعد هذا كله لا ترجو نوالاً ولا وصلاً ، تعلم أنها بعيدة عنك بعد النجم . وإن قررها منك القلم . — وقد رضت النفس على هذا البعد الممزوج بالقرب ، وهذا النوال المنطوى على الحرمان . وهذا الوصل الذي هو أدنى إلى القلي والهجران . فلا تريد على حبك جزاء ولا لدائك دواء . ذلك أن هواك عذري أفلاطوني برى . فلا تريد لنارك المتأججة أن تطفأ ،

ولا لغليلك المستعر أن يشفى . حب هو الغاية والوسيلة ، نار تأبى إلا اضطراراً ، ودمع يأبى إلا انسجاماً . وتثور يريد أن يفور ، ويركان يحاول أن ينور . من غير مأرب تنشده ، أو أمل تريد تحقيقه ، أو غاية تبغى الوصول إليها . بل إن الحب هو الشغل الشاغل عن كل أمل أو مأرب أو مرام . .

تلك إذن هي الظاهرة الأولى للعشق النجمي : أنه هوى عذري طاهر عفيف نظيف . أما الظاهرة الثانية لذلك العشق . فهي إنه يصيبك من بعيد . . وقديماً ودفع لنا الشريف الرضي هذه الظاهرة فقال يخاطب نجمته ! :

سهم أصاب وراميه بذى سلم

من بالعراق ... لقد ابعدت مرماك . .

ذو سلم هذا مكان في جرار المدينة المنورة ، يكثر الشعراء من ذكره حين ينسبون . ولو كان لديك أيها القارئ مصور جغرافي لأمكنتك أن تقيس المسافة بين العراق وذى سلم ، ولعلمت أنها لا تتجاوز سبعمائة من الأميال . ومع ذلك يندب هــ الشريف الرضي لأن سهم الحب قد أصابه من ذى سلم والشاعر في العراق لكن تلك المسافة لا تعد شيئاً إذا قورنت إلى البعد الهائل الذي يفصل ما بين هليوود وبين وادي النيل السعيد . . وأن النجمة الفاتنة لترى بسهمها من تلك الأقطار القاصية ، فلا يلبث أن يصيب صميم الفؤاد ، ويفتت الأكباد ، في شرق العالم وغربه . لا تحول دونه بحار ولا قفار . . .

وفي الحب العادى قد يكون البعد من أسباب السوء ، والبعيد عن العبد بعيد عن القلب في زعم الناس . لكن البعد بين المحب والمحبوبة شرط أساسى في هذا الصنف من الغرام . بل إنى زعيم بأن عاشق النجمة لو رآها على قارعة الطريق ، وهى تبتاع شيئاً من الحلوى ، أو داخلة إلى دكان الحلاق . لرأى شيئاً كسائر الأشياء وامرأة كسائر النساء ، ولما حدثته نفسه بأن قد يصيبه من مثل هذه قبلة غرام . . بل ولا سهم ضئيل . .

كلا . . إنما يلعب حب النجوم بالارواح عن بعد . . ومن مستلزماته تلك الحجرات المظلمة المظلمة ، تبعث في النفس رهبة ، وتثير فيها شغفاً ورغبة . وهذه الأنوار الساحرة تنبعث من مكان خفي ، وتسطف على لوح فضى : ظلام يتوسط ، نور ، ونور